

الفصل الأول الفخر الذاتي

قلنا في مقدمتنا إن الفخر الذاتي هو ما دار حول الشاعر في نفسه وفي آبائه وأجداده . وهذا كثير في الأدب العربي لا يكاد يخلو منه ديوان ، وذلك أن العربي نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالي والمباهاة ، شديد الاندفاع بما في نفسه من نزعات ، والتغنى بما فيها من حسنات ؛ شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد ، وهم في نظره هو عامللاً بأيديهم ، مفكراً بعقولهم ، باذلاً بكفهم ، رافعاً مداميك المجد بأناملهم الزهراء ، قائلاً أروع القول بالسنتهم البليغة . وللصحراء المحبذة يد فعالة في تطلب ما لا يوجد ، وفي استثارة الهمة لنيل المثل العليا ؛ وللأخطار والضيقات يد فعالة في تنزي الطموح وتوثبه إلى الذرى ؛ وللهاجمة العناصر وقوى العدو الغازي أو المستعمر يد فعالة في اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى ؛ التي تنفجر مفاخر لا يحد من انطلاقها حد ، والتي تتسلح بأجنحة الخيال المضخم ، وتدوم في أجواء تناطح غوارب المستحيل .

والأخلاق والعادات تماشي ، عند كل أمة ، حاجاتها وصور معيشتها ، ومن ثم كانت الأخلاق والعادات التي فخر بها العرب ثمرة حاجاتهم وصور معيشتهم ، وقد فخروا بكرم العنصر ، وقوة العصبية ، ومنعة الجاناب ، والشجاعة ، والكرم ، والإباء ، والوفاء ، والمروءة ، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيماً . ثم فخروا بالتعقل ، والفيض الشعري ، وحسن الصياغة ، والجمال الفني ، وما إلى ذلك مما سنأتى على ذكره فيما بعد .

عاش العرب ، أول ما عاشوا ، في بلاد تعددت صحاريها . وقل ماؤها ،

واتسعت أراضيها المجدية ، وتسלט عليها الحر والسموم ، فكانوا في أكثرهم بدواً يسكنون الخيام وينصرفون إلى رعى الإبل والشاء ، لا يقيمهم غير سواعد قوية وقلب جرىء وتضامن قبلي ، ومن ثم كانت الشجاعة أغنية آمالهم ، وكانت القبيلة محط رحالهم يرتكز عليها نظامهم الاجتماعي ، ويتعصبون لها أشد التعصب .

ولما كانت الحياة في البادية معرضة لقسوة السماء والأرض ، يلوح فيها شبح الفاقة كل حين ، عظم شأن الكرم عند العرب ، وهو سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس . وراح الشعراء يتغنون به ، ويفخرون بالبذل والعطاء ، ويفخرون أنهم يعطون على البديهة ، وأنهم يسرعون في البذل وإن جهلوا السائل ، وأنهم يتהלون إذا جاء الطالب وأتاح فرصة للعطاء ، وأنهم يرحبون بالضيف ويقدمونه على الأهل والولد ، ويوقدون له نار القرى ليلاً على الجبال والرئي ، ويعودون كلهم أن ينبج للضيفان فيهدوا بصوته ، إلى غير ذلك مما لا حصر له .

والحياة في البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة ، ومن ثم مال العرب إلى الحلم والإباء والشرف . وراحوا يتغنون بكرم قلوبهم ، وترفعهم عن الفحشاء ، وتكرهم للعار والصغار ، وتواضعهم وحياتهم ، وعفوهم عند المقدرة ، كما راحوا يتغنون بشورتهم في وجه الإهانة ، وصلابتهم في طلب الثأر .

والحياة في البادية حياة ترحل وتنقل ، لا يقيدتها قيد قانون ، ولا قوة منفذة . ولا محاكم ولا شرطة ، ولذلك كانت كلمة الشرف قانون الحياة ، وكان الوعد الصادق سنة المجتمع ، وكان الوفاء عند العرب من أقدس الأمور ، والغدر ونقض العهود من أحقرها وأبغضها إلى النفوس ، ولهذا تغنى الشعراء بالوفاء ، وأشادوا بذكر الأوفياء .

والحياة في البادية حياة فروسية يعمل الأبطال فيها على حماية المستضعفين والبائسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين ؛ وقد تغنى الشعراء من ثم بحفظ الجار وإعزاز جانبه ، وتبليغ دعوة المكرويين في الحرب ، وبفك

العانى الذى أسر ، وبالدفاع عن المرأة ، وبكل ما هو من ميزات الفروسية الحق التى ترفع الإنسان إلى درجة عالية من السمو والكمال .

تلك كانت الحياة فى البادية ، وتلك كانت الخلال التى فخر بها الشعراء .

ولما جاء الإسلام جمع كلمة العرب ونقل حياتهم من فردية قبلية إلى قومية عربية ، ونظم شؤونهم الاجتماعية ، وتناول أصولهم الأخلاقية وهذبها ونماها ووجهها فى طريق الاستقامة والفضيلة والخير ، ولبت الشعراء يفخرون بها مصطبغة بالصبغة الإسلامية ، ويزيدون ما توحى به البيئة الجديدة والدين الجديد . ولما كان العهد العباسى حيث نقلت ثقافة العالم القديم إلى العرب ، وانتشرت فى ديارهم الحركة العلمية ، وشاع فيهم التحصيل العلمى والسعى فى تركيز المعلومات ، وسن قوانين الكتابة والصناعة ، زاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحى به البيئة الجديدة ، فراحوا يتغنون بالشاعرية والعقل واللباقة فى استنباط المعانى ، كما راحوا يتغنون بالدوق فى التنضيد والزخرفة وما إلى ذلك . ولبت تلك الحركة الفخرية على حالها من ناحية الموضوعات والأساليب إلى منتصف عهد النهضة ، وقد تقلص ظلها شيئاً فشيئاً بازدياد الوعي وتطور الحضارة . وإليك نظرة تاريخية تحليلية فى أشهر شعر الفخر الذاتى على مر العصور .

الفخر الذاتى فى الجاهلية

نبت الفخر فى الجاهلية نبثاً تلقائياً من نفوس تهوى العزة والجد ، وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين قول ومفاخرة ؛ ومن مواقف منافرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين ، فينفره على خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبيناً ما له من فضائل وحسنات ؛ ومن مجالس أدب كان العرب يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، وكانوا يسمونها أندية ، وكان لكل ناد فناء يزدهمون فيه للتناشد والتفاخر .

١ - فخر الصعاليك :

للصعاليك في الأدب العربي فخر هو عصارة البادية و خلاصة النفس العربية الأصيلة . فتأبط شراً هو البادية في بداءتها وقسوتها ، في شظف عيشها وانطلاق حريتها ، في هربها من النفس إلى النفس ، في سذاجتها العذبة وفي ماديتها اللاحقة بالأرض . وهو رجل الانفرادية الذي لا يصحبه إلا « العمانى الأفل » ، ورجل الحزم الذي يقرن الشجاعة إلى الفطنة ، والإقدام إلى الحكمة ، فيحتال على الأيام ويبعث النظر رائباً للعمل ، فهو « للقصدي بصر » وهو « إذا سد منه منخر جاش منخر » ، وهو « شري » للعدو و « أرى » للصديق . والحرية الجاهلية من أقدس الأمور لديه فهو يؤثر الموت على ذل الأسر والقيد ، إلا أن الموت لا يناله بل « يبقى خزيان ينظر » فيغلب على الموت بالحزم ، ويفلت من القيد بالحيلة . فهو أبداً يقظان يحسب لكل شيء حساباً ، وهو أبداً رجل الشخصية القوية والثقة بالنفس . وهو على فقره وتشرده كريم جواد يقرى الضيف صيف شتاء ، ويؤثر أضيافه على نفسه ، كما يدفع عن جاره ، ويأبى إلا أن يكون عزيز الجانب ، قرير العين . والثأر في نظره واجب وهو حكم الحقيقة ولسان الحق :

إذا المرء لم يحتل وقد جدَّ جدُّه	أضاع وقاسى أمره وهو مُدِيرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً	به الخطب إلا وهو للقصدي مبصرُ
فذاك قريبُ الدهر ما عاش حول	إذا سدَّ منه منخر جاش منخرُ
أقول للخيان وقد صغرت لهم	وطابى ويومى ضيق الجحر معورُ
مما خططنا إما إसारُ ومنسة	ولما دم والقنل بالحر أجدرُ

وَأُخْرَى أُصَادِي النَّفْسَ عَنْهَا وَإِنَّهَا
فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فَزَلَّ عَنِ الصِّفَا
فَخَالَطَ سَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصِّفَا
فَأَبْتُ إِلَى قَهْمٍ وَمَا كِدْتُ آثِباً
لَمَوْرِدٍ حَزَمٍ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ
بِهِ جُوجُوٌ عِبْلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ
بِهِ كَذْحَةُ وَالْمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ
وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقَتْهَا وَهِيَ تَصْفِرُ

وذلك هو العربي الجاهلي ، وتلك هي النفس العربية الأصيلة التي ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصنعة والكذب ، فالحياة عنده هزة بالحياة ، وتعلق بها ، هي كرامة تحفظ ، ومال يبذل ، وحرية تقبّس ، وبد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء في جو من الاطمئنان والحذر ، واللاوعي الحازم .

والشنفرى هو أيضاً ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة ، وابن الفطرة الغنية بالاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس ، فجفاف الصحراء ، ومطاردة الشدائد كراً وفراً ، والتنكر للمذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكناً . والصبر على الجوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاعة الأيام ، والقبول بالفقر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... هذا هو الشنفرى ، وهذا موضوع فخره ، وتلك طريقته الاعترافية الحافلة بالعدوبة . وها هو ذا ، وقد دخل الغيظ نفسه ، فغادر الأهل والأصحاب ، وراح يضرب في الفيافي ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدة كانت حكاية لحاله في عزة نفسه وسخطها ووحشتها . نجترى منها بما يلي :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صَدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرُ
وُشِدَّتْ لِطَيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئٍ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى
وَفِيهَا ، لِمَنْ خَافَ الْقِلَى ، مُتَعَزِّلُ

لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسُ
هُمْ الْأَهْلُ لَأُمْسِتَوْدَعُ السَّرَّ ذَائِعٌ
وَكُلُّ أُنْبَى بِاسْمِلُ ، غَيْرَ أَنِّي ،
وَلِنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفْضُلٍ
وَأِنِّي كَفَاتِي فَقَدْ مَنْ لَيْسَ جَازِيَةً
ثَلَاثَةٌ أَصْحَابٍ : فُؤَادٌ مُشِيعٌ
هَتُوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتُونِ يَزِينُهَا
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا

سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وَهُوَ يَعْجَلُ
وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جِيَالُ
لَدِيهِمْ ، وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَلُ
إِذَا عُرِضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ
بِأَعْجَلِهِمْ ، إِذَا جَشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضَّلُ
بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلِّلُ
وَأَبْيَضُ لِصَلْبِيَّتْ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
رِصَائِعُ قَدْ نَيْطَتْ إِلَيْهَا وَمَحْمَلُ
مُرَزَّاةٌ تَكْلِي تَرِنُ وَتُعُولُ

وعروة بن الورد هو رجل العطاء والحدود يفخر بهما في غير تبجح ، وهو
رجل الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحذب على ذوى البؤس ، ومن
أروع ما قال في هذا الصدد :

دَعِينِي أَطُوفَ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي
أَلَيْسَ عَظِيماً أَنْ تُلِيمَ مُذِمَّةٌ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعاً بِحَادِثٍ
أَفِيدُ غِنًى فِيهِ لِلَّذِي الْحَقُّ مَحْمِلُ
وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقِّ مَعُولُ
تُلِيمُ بِهِ الْأَيَّامُ فَالْمَوْتُ أَجْمَلُ

ومن ثم ترى أن هذا الصعلوك من أشرف الصعاليك ، فهو يعيش لغيره أكثر
منما يعيش لنفسه ، ويبذل كل شيء في سبيل الغير . وفخره اعتراف بما يعمل
وبما يرى ، واندفاق طبيعى للنفس الجاهلية ، في أقرب حالاتها إلى الفطرة .

ب - فخر الشعراء الفرسان :

وهناك فئة أخرى من الشعراء هي فئة الشعراء الفرسان ، وأحسن شعرهم في الحماسة والفخر ، وخير ممثلين لهم : حاتم طي^١ وعنترة بن شداد .
أما حاتم الطائي فهو سيد من سادات قبيلته ، وهو مضرب المثل في الجود وكرم الأخلاق والعاطفة الإنسانية التي تمتد إلى كل ضعيف وغريب ، ومعوز وأسير . قال ابن الأعرابي : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ، وكان حينما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . وكان يقسم بالله ألا يقتل واحداً أمه . وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ، ينحر كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واجتمعوا عليه » .
وهكذا كان حاتم مترفعاً عن الدنيا ، وهو يقول :

كَرِيمٌ لَا أَبَيْتُ اللَّيْلَ جَادُ أَعَدُّ بِالْأَنَامِلِ مَا رُزِيتُ^(١)
إِذَا مَا بَيْتٌ أَشْرَبُ فَوْقَ رِيٍّ لِسُكْرِ فِي الشَّرَابِ ، فَلَا رَوَيْتُ
إِذَا مَا بَيْتٌ أَخْتَلِ عِرْسَ جَارِي لِيُخَفِّفَنِي الظَّلَامُ فَلَا خَفِيتُ^(٢)
أَفْضَحُ جَارَتِي وَأَخُونُ جَارِي ؟ مَعَاذَ اللَّهِ أَفَعَلُ مَا حَيَّيْتُ !

فهو عفيف وهو أبي النفس ، وهو لا يخون الجار مهما تقلبت الأحوال .
وهو رائع في فخره هذا ، مرتق إلى درجات عالية من سمو الأخلاق .

(١) الجادى : السائل . رزيت أى رزئت : أصبت به .

(٢) اختل : أخادع . العرس : الزوجة .

وحاتم لا يعبد الدينار ، بل يرى أن الحياة بذل وسخاء ، وأن المال خلق للبلد في سبيل الثناء والذكر الحميد : فعلى الإنسان ألا يكسبه بالغلر ، وعليه ألا يتمسك به تمسكاً شديداً ، وهو يقول :

إِذَا كَانَ بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ ، مَا لِي مُعَبِّدٌ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي ، وَيُؤْكَلُ طَيْباً وَيُعْطَى ، إِذَا مَنَّ الْبَخِيلُ الْمَطْرَدُ

وللمال في مذهبه سبل ، وللبلد في نظره مبرر ، فالعيش قصير ، والحياة فانية ، وخير ما يترك الإنسان على الأرض ذكر طيب ، وثناء يردده القاصي والداني .

وحاتم يوقد النيران للضيفان ليلاً ، ويبذل في سبيلهم كل نفيس . وكان إذا جنَّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله ؛ وكانت كلابه لا سهر في وجه ضيوفه :

وإِنَّا نُهِنُ الْمَالَ فِي غَيْرِ ظَنَّةٍ وَمَا يَشْتَكِينَا فِي السَّنِينَ ضَرِيرُهَا (١)
إِذَا مَا بَخِيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كَلَابُهُ وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الضَّعِيفِ عَقُورُهَا (٢)
فإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ بَيْتِي مُوطَأٌ أَجُودُ ، إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا
وإِنَّ كَلَابِي قَدْ أَهَرَّتْ وَعُودَتْ قَلِيلُ ، عَلَى مَنْ يَعْتَرِينِي ، هَرِيرُهَا

وهكذا كان حاتم عبداً لضيفه ، وكان اشتراكى التزعة ، وهكذا كان فخره حكاية حال . وتصويراً للحقيقة والآمال ، وهكذا كان رجلاً فوق الرجال ، وعلماً من أعلام المروءة العربية الأخاذة .

وأما عنزة بن شداد العبسي ففيه « معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق

(١) السنون : أى سنو القحط .

(٢) العقور : الذى يعقر .

دون أن تنتهى به الرقة إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى به الشدة إلى العنف ، وهو صاحب شراب دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صحود دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم . وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربى الكريم » فيقول :

أَثْنَى عَلَىَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّى سَهْلٌ مُخَالَفَتِى إِذَا لَمْ أُظَلَمْ^(١)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ^(٢)
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّى مُسْتَهْلِكٌ مَالِ ، وَعِرْضِى وَافِرٌ لَمْ يُكَلَّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِى وَتَكَرُّمِى

وعنرة يغشى الوغى ويعف عن المغنم ، وهو رجل حياء وتكرم وعفة ؛ وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التى تأبى القيود ، وتسمو إلى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار ، والتى تؤثر الجوع على المأكل الحسيس ، ولا تخون الجار فى ماله أو فى عرضه .

ح - فخر الأمراء وشعراء البلاط :

وقد تعالت نغمة الفخر فى الجاهلية عند الأمراء أيضاً وشعراء البلاط ، إلا أن تلك النغمة لم تكن مجرد اعتراف وحكاية حال ، بل تضخمتم أوتارها بعض التضخم ، فتضخمتم من ثم المعانى والأخيلة ، ولكن من غير إحالة ولا غلو مكروه . ومن هذه الفئة السموول وطرفة بن العبد .

(١) مخالفتى ؛ معاشرى .

(٢) المشوف : المجلو ، استمارها للدينار . المعلم : الذى يحمل كتابة .

أما السموءل فهو ابن غريض بن عادياء اليهودى صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتياء ، وبه يضرب المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته فى دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . والسموئل على النفس عزيزها ، ينظر إلى كل شىء من عل ، لا عن كبرياء عمياء ، ولا عن غرور صبياني ، بل عن أنفة مكونة من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام فى صفوف شبان قومه وكهولتهم ، وعزة جار ، ومنعة وشجاعة ، وسخاء يد ، وتاريخ مجد لا يعدله مجد . وشعر السموئل صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة فى الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال . قال مفتخرًا :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عَرَضُهُ	فَكُلُّ رَدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ
وَأِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا	فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلٌ
تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا	فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلُنَا	سَبَابُ تَسَامَى لِلْعَالَا وَكِهُولُ
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا	عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ	مَنْعِيحٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلٌ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ	إِلَى النَّجْمِ فَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلٌ
وَأَنَا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً	إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ
يَقْرَبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا	وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَفَ أَنْفِهِ	وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ نَفُوسُنَا	وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاتِ تَسِيلُ
صَفُونَا فَلَمْ نَكْدَرْ وَأَخْلَصَ سِرُّنَا	إِنَاثُ أَطَابَتْ حَمَلُنَا وَفُحُولُ

عَدَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطَّنَا
 فَذَنَحْنُ كَمَا أَلْمَزْنَا فِي نِصَابِنَا
 وَنُنْكِرُ إِن شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ
 إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ
 وَمَا أَحْمَدَتْ نَارُ لَنَا دُونَ طَارِقِ
 وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدَوْنَا
 وَأَمْسِافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ
 مُعَوَّدَةٌ أَلَا تُسَلِّ نِصَالُهَا
 سَلِي إِن جَهِلَتْ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمْ
 فَإِنَّ بَنَى الدِّيَّانِ قُطْبُ لِقَوْمِهِمْ
 لَوْ قَتَلْتُ إِلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نَزُولُ
 كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلُ
 وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
 قَوْلُ لِمَا قَالَ الْكَرَامُ فَعُولُ
 وَلَا دَمْنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ
 لَهَا غُرُرٌ مَعْلُومَةٌ وَحُجُولُ
 بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
 فَتُعْمَدُ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ
 فَلَيْسَ سَوَاءَ عَالِمٌ وَجْهُولُ
 تَدَوُّرُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وَتَجُولُ

هذه القصيدة خلاصة الخلق العربي النبيل ، وخلاصة المروءة وعزة النفس ،
 وهي تنقل القارئ إلى جو واسع من الرفعة ، وهي تنبض بالحياة وتمثل روح
 صاحبها أقوى تمثيل ، وكأنى به شاخصاً في كل لفظة وكل نبرة وكل بيت ،
 وكأنى به في ذروة المجد العربي يردد القول :

تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ

وأما طرفة بن العبد فليس من شعراء الفخر الذين أكثروا من القول فيه ،
 ولكنه شاعر عاش في جومن التحرر الفكري والأخلاق ، فاصطدم بالواقع الأليم ،
 وطرد من حيه فراح يضرب في البلاد إلى أن اتصل ببلاط الحيرة ، واصطدم هنالك
 أيضاً بضعة الناس ولم يحسن المراوغة ، وقد كان للاصطدام في نفسه انفعالات

شديدة ، وهو الشديد الشعور ، والكثير الانكفاء على الذات وعلى أحداث الحياة يحللها ويحاول تفهم مصايرها ومصادرها . وقد كان لنفسه غضبات وانتفاضات ضمنها من أقوال الفخر ما يصدى لحالاته النفسية أصدق إصداء . وهو في فخره رجل عنفوان يقعد على الواقع انطلاقات خياله ، ودو رجل صراحة وجراءة ، يصف لنا حاله في غير التواء ، وإذا هو قوى على حوادث الدهر ، صبور في الملمات ، وإذا هو من قوم مجدهم في اتزانهم . ورفعتهم في اتضاعهم وبسطة أكفهم . لا تبدلهم الأحداث ، ولا تغيرهم الأحزان والمسررات ، يعطون في غير حساب . ويقرون الضيفان في غير اقتصاد ، لهم في ندور الأشرار طعنات وطعنات ، ولهم في ندور الأخيار قلائد وقلائد ، لا تعز الحمرة في جنباتهم . ولكن لهم مع الحمرة عقولاً راجحة ، وفضائل غراء :

وَتَشَكَّى النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا فَأَصْبِرْ إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَبْرٌ^(١)
 إِنَّ نَصَادِفَ مُنْفِسًا لَا تُلْفِنَا فُرْحَ الْخَيْرِ ، وَلَا نَكْبُو لِضُرٍّ^(٢)
 أَسَدٌ غَابَ ، فَإِذَا مَا فَرَعُوا غَيْرُ أَنْكَاسٍ وَلَا هُوجٍ ، هُنْزٌ^(٣)
 وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ يُصْلِحُ الْإِبْرَ زَرَغَ الْمُؤْتَبِرِ^(٤)
 طَيِّبُو الْبَاءَةَ ، سَهْلٌ ، وَلَهُمْ سُبُلٌ إِنْ شِئْتَ فِي وَحْشٍ وَعِرٍّ^(٥)
 وَهُمْ ، مَا هُمْ ، إِذَا مَا لَبِسُوا نَسِجَ دَاوُدَ لِبَاسٍ مُحْتَضِرٍ^(٦)

(١) صاب بها : الباء زائدة ، أى أصابها .

(٢) المنفس : النفيس . نكبو : نحزن .

(٣) الأنكاس : الجبناء .

(٤) الآبر : المصلح . المؤتبر : طالب الإصلاح .

(٥) الباءة : المساحة . يقول : إن ساحاتهم سهلة لطالبي معروفهم ، وهى وعرة لطالبي ضرهم .

(٦) نسج داود : أى الدروع . المحتضر : الحاضر .

وَتَسَاقَى الْقَوْمُ كَأْساً مُرَّةً - وَعَلَا الْخَيْلَ دِمَاءُ كَالشَّقِيرِ^(١)
 ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ غَفَرٌ ذَنْبُهُمْ ، غَيْرٌ فَخْرٌ
 لَا تَعِزُّ الْخُمُرُ ، إِنْ طَافُوا بِهَا بِسَبَاءِ الشُّوْلِ ، وَالْكُومِ الْبُكْرِ^(٢)
 وَرَثُوا السُّودُّدَ عَنْ آبَائِهِمْ ثُمَّ سَادُوا سُودُّدًا غَيْرَ زَمِيرٍ^(٣)
 نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِمِرُ^(٤)
 حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ أَقْتَارُ ذَلِكَ أَمْ رِيحٌ قُطِرَ؟^(٥)
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا آفَةُ الْجُزْرِ مَسَامِيحٌ يُسْرُ
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا وَاضِحُوا الْأَوْجُهَ ، فِي الْأَزْمَةِ ، غُرُ
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا فَاضِلُو الرَّأْيِ فِي الرَّوْعِ وَفُرُ
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا صَادِقُوا الْبَأْسِ ، فِي الْمَحْفَلِ غُرُ

وبمضى الشاعر الشاب في تعداد المفاخر متثدداً ، هادئ السرب ، واثقاً أن ما يقوله هو الحق ؛ لا يبغي التَّوِيلَ ولا يتطلب التَّمْوِيهَ ؛ هو رجل عقيدة خاصة ، وهو رجل مروءة ؛ وهو رجل حزم وصرامة ؛ وهو في كلامه الصَّارِمِ يصوغ المعاني في قالب من البداوة الأصيلة ، تلك البداوة الواعية التي ترى وتدرك وتقيس كل شيء بمقياس الأخلاق البدوية الرفيعة ، من غير ما إغراق في الغلو المبتذل .

(١) الكأس المرة : الحديث في الحرب . الشقير : شقائق النعمان .

(٢) طافوا بها : ساروا بها . سباء : شواء . الشول : النوق التي مر عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . الكوم : النوق العظيمة السنام . البكر : الحديثات السن .

(٣) الزمير : القليل .

(٤) المشتاة : الشتاء . ندعو الجفلى : أى نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً .

(٥) القطار : رائحة اللحم المشوي . القطر : العود الذي يتبخر به .

تلك نماذج من الفخر الذاتي في الجاهلية ، يتضح لنا من خلالها أن موضوعها الأخلاق العربية التي كان العربي يعتز بها ، وهي مستوحاة من حياة الفطرة وحياة البادية . ويتضح لنا أنها تنبت على لسان الشاعر الجاهلي نبأً تلقائياً في سداجة عذبة ، وفي إيمان ثابت بالكرامة العربية ، والعزة البدوية .

الفخر الذاتى فى العهد العباسى

لم يقتصر الفخر الذاتى على الجاهلية وإنما تعداها إلى سائر عصور الأدب ، ورافق الشعر فى جميع تطوراته ، وقد انتشر فى العهد الإسلامى والأموى ولكنه امتزج بفكرة الفتوح ، وبالحماسة الهجائية والحربية ؛ ولهذا آثرنا أن نجعله فى باب خاص ؛ ثم كان العهد العباسى ، وكان الانقلاب العظيم فى السياسة والاجتماع والثقافة ، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية ؛ وبين العقل العربى والعقل اليونانى والفارسى والهندى ؛ وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم ؛ ونشأت النزعة العنصرية فى صفوف الشعوبية ، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب . أما موضوعات الفخر الذاتى فى العهد العباسى فهى مما يماشى حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم . وقد كانوا فى بدء الأمر فى طور انتقال من حال إلى حال ، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممترجة ، من تشديد إلى تحرر ، من ثقافة وحضارة عربيتين إلى ثقافة وحضارة هما مجموعة ثقافات وحضارات ؛ من عادات وتقاليد عربية فى الأخلاق والدين والأدب ، إلى عادات وتقاليد هى عبارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانقلابات من القيود ، والتفلسف والجدل ، والاعتماد على العقل الذى فاجأته الفلسفات فحار بينها وحاول أن يهدم ويبنى فى غير تثبت عميق أحياناً كثيرة . ثم راح أبناء ذلك العهد يهضمون الفلسفة والعلوم ، وراحوا يبحثون ويناضرون ، وراحوا يكتبون فى ما يبحثون ، وإذا الجوجو عالمى ثقافى تجديدى ، وإذا هنالك صراع بين القديم والجديد ، وبين التقاليد والتقاليد ، وإذا هنالك تفاخر على غير نمط الجاهلية والعهد الأموى ، وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانقلابات والتحرر ، والشجاعة الحكيمة ، والحزم فى

الأمور ، والأصل العريق في الحضارة والرقى . والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن ، والأصباغ المتماوجة في أجواء الجمال . وحول الوقار والتعالى في سلم المنجد المعنوى : وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة في الأدب العباسي . ولئن عثرنا بعض الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم : فما ذلك إلا نفحات صحراوية في بلاد اليمن والرخاء . وما ذلك إلا أصوات ناشزة في عالم من الأنغام المتناسقة .

وإننا سنعرض لبعض شعراء الفخر في هذا العهد مبينين ما لهم من صفات وميزات : موضحين آراءهم وأساليبهم ، وإن في شعرهم الدلالة الثابتة على ما في شعر غيرهم من ميزات وآراء وأساليب .

١ - فخر المجددين :

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أجنبية تضمحل للعرب شراً ، وشعوبية غاضبة على السلطان القائم ، وتدخل الفرس في صلب الدولة ، كل ذلك دعا إلى التجديد في مطلع العهد العباسي ، بل دعا إلى صراع بين أرباب القديم وأرباب الجديد . وخير ممثل لهذه النزعة التجديدية في الفخر بشار بن برد .

كان بشار من أصل غير عربي ، وكان فياض القريحة الشعرية ، ففخر على عادة الشعراء : وكان الميدان أمامه واسعاً ، وإذا به يصف نفسه بكل الصفات المحببة إلى ابن العهد العباسي ، في كلام متين ، وتدفق عجيب ، وسلاسة ما بعدها سلاسة ، وموسيقى شعرية أخاذة ؛ وإذا به رجل الشهرة الواسعة التي لا تضاهيها شهرة :

أَنَا الْمَرَعْتُ لَا أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ذَرَّتْ بِي الشَّمْسُ لِلدَّائِي وَلِلنَّائِي

وإذا به نموذج ومثال أعلى يشبه به الخليفة نفسه :

يغدو الخليفةُ مثلي في محاسنه ولست مثلي فنمّ ياماضغ ألماء^(١)

فهو أخو المحاسن ، وهو الرجل العالى فى مراتب الاجتماع ، وهو رجل الخطه العظيمة ، الذى ينهض بكل أمر دى شأن .

وهو رجل المضاء والبيان :

قَطَعْتُ مِرَاءَ الْقَوْمِ يَوْمَ مَهَائِلِ بِقَوْلِي وَمَا بَعْدَ الْبَيَانِ مِرَاءُ
وَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا رُبَيْعَةَ أَنْزَى إِذَا السَّيْفُ أَكْدَى كَانَ فِي مَضَاءِ

وهو القلب النير والمقول الذرب :

قَدْ أَذْعَرُ الْجِنَّ فِي مَسَارِحِهَا قَلْبِي مُضِيءٌ وَمِقْوَلِي ذَرْبُ

هو رجل العقل والحصافة ، هو رجل الثقافة الواسعة فى عالم الثقافة والعلم ، وهو رجل القريحة الفياضة فى عصر الإنتاج والنقل والترجمة ، وهو إلى ذلك رجل الوقار القائم على العقل المفكر :

يَا سَلَمَ إِنِّى أَمْرُؤُ يَوْقَرُنِى حِلْمِى إِذَا الْقَوْمُ فِي الْخَنَا وَثَبُّوا

أما قومه فخير القوم ، فى شجاعتهم ، وعزهم وشرفهم ، ورجاحة عقلهم :

أَصُونُ عَنِ اللَّثَامِ لُبَابَ وَدِّى وَأَخْتَصُّ الْأَكَارِمَ بِاللُّبَابِ
وَأَيُّ فَتًى مِنَ الْبَوَغَاءِ يُغْنَى مُقَامِى فِي الْمَخَاطِبِ وَالْخِطَابِ^(٢)

(١) يخاطب يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ويهجو وينتعه بالحق وسوء وضع الأشياء موضعها .

(٢) البوغاء : الحق .

وَتَجْمَعُ دَعْوَى آثَارِ قَوْمِي هُمُ الْأَسَدُ الْخَوَادِرُ تَحْتَ غَابِ
وُلَاةُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الْمَعْلَى يَرْدُونَ الْفُضُولَ عَلَى الْمُصَابِ

هؤلاء هم قومه ، وهذا هو في قومه . وهذا هو العقل عنده وعند قومه ، وهذه هي النزعة الإنسانية التي تحنو على الوجود ، وتقابل النكران بالحدود ، وتنبت من الشرخيراً ، ومن الغضب برأ ، وتسرع إلى الرحمة من غير ما سرعة إلى العتاب والعقاب ، وترد الضال عن غيه ، وتلم الشعث ، ولا تطلب من عمل خير تعمله إلا أن ينتفع الناس ويعرفوا الحميل ؛ وإذا دعت الحال إلى الحرب ، كانت تلك النزعة صدوراً متأهبة للقتال في بأس شديد، وسخاء في التفاني عجيب.

مشهد جديد من مشاهد الفخر دعت إليه الحضارة الجديدة والمجتمع الجديد ، وكم في هذا الفخر من تعقل ورصانة وجودة تفكير !

وأما أصل بشار فهو بعيد عن كل أصل عربي ، وهو بعيد عن عادات العرب . وهنا تظهر النزعة الشعبوية عند بشار بأجلى مظاهرها . فاسمعه يقول .

هَلْ مِنْ رُسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
بِأَنِّي ذُو حَسَبٍ عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ كَسْرَى وَسَاسَانِ أَبِي

إن في هذه القصيدة استعلاء شديداً على العرب ومفاخرة بالفرس والروم . وهذا شيء جديد في تاريخ الفخر العربي . وإنما إذا أنعمنا النظر في القصيدة تجلت لنا الحضارة الفارسية في أبهى وروفتها ، وذكرنا الحروب الفارسية وانتصارات الأكاسرة ، ووقفنا أمام الشاعر متبعين لأحداث التاريخ ، ذاكرين أثر الفرس في الانقلاب العباسي . وكيف كان ذلك شرارة ألهمت النار الشعبوية

في طول البلاد وعرضها ، مما شجع الألسنة على تنقص العرب والخط من شأنهم والتطاول على كرامتهم .

وبشار رجل طوّحت به الأقدار وزجته في ظلمة كالحة ، لا يجد معها سلاحاً يقاوم به الحدّثان إلا لساناً محدداً ، وشاعرية فياضة تلبي حين الطلب . وهو رجل عنفوان وطموح ، تحمله طبيعته على التسامى وعلى سد نقص الطبيعة بذلك التسامى نفسه ، وهو من ثمّ ميال إلى المفاخرة ، حاقداً على الخط ، كاره للناس ولا سيما العرب منهم ، الذين يجد من بعضهم استصغاراً لشأنه . وهذا الشعور بالنقص عند بشار ، وهذا الحقد ، وهذا التسامى ، كل ذلك يدفعه إلى السخرية الصفراء ، إلى الاستهزاء الناقم . ولهذا حفل فخره بالاستهزاء اللاذع والسخرية القتالة .

وبشار إلى ذلك رجل حماسة فياضة ، ينتفض شعره بعاطفته انتفاضاً ، وتحمل ألفاظه أصداء عميقة لتلك العاطفة المنتفضة ، وهو القائل :

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نُعَاتِيَهُ

وهكذا كان بشار نقيب العهد الجديد ، وهكذا كان فخره جديداً بمعناه وأسلوبه وشعوبيته ، وإن لم يخل من بعض النفحات القديمة التي انتقلت إليه عن طريق التقليد .

ب - فخر العودة إلى القديم :

بعد هذه الثورة التجديدية التي حاول أن يبعثها المجددون ، نشأ تيار معاكس يعمل على العودة إلى القديم وتقليد الأقدمين ، ويرد الشعر إلى أبواب البلاطات ، وإلى أرسقراطية القديم وصلابته ، من غير ما تغاض عن حضارة العصر الجديد ، ومن غير إهمال لما تقدمه الثقافة الجديدة من عمق تفكير ، وتنميق وتحبير ، ومن تفخيم وتطلب للصنعة البديعية . وقد اشتهر في هذه المرحلة أبوتامم والبحترى وابن الرومي .

أما أبو تمام فهو صاحب قصائد قليله في الفخر ، يبدى فيها إعجابه بعقله الباكر الفذ ، وعبقريته الشعرية ، وبصبره ومضائه في اقتحام الصعاب ، وسعيه وأسفاره ، كما يعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيئ ، وما تمتاز به دون سواها من حجب وحلم وشجاعة ، ومن مجد أثيل ، وندى فياض .

وأما البحترى فقد أودع فخره إعجابه بقومه ، مباهاً بكمارهم ، معدداً مناقبهم ، مقابلاً شرف اليمين وعزها بخشونة عرب الشمال وسوء حالهم ؛ كما أودعه إعجابه بنفسه ، وكبره المفرط ، ذلك الكبر الذي طالما حال التكسب دونه في حياة الشاعر ، فاضطره إلى كسر عتفوانه وعناده ، وهضم الإهانة في حنر ، خشية صد العطاء .

وأما ابن الرومي فكان الفخر عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر الناس إليه ، وكان انتفاضة عصبية في وجه الظلم ولؤم الناس . فهو يقرع الممدوحين على الالتفات إلى سائر الشعراء دونه ، وهو وحده في نظره الجدير بالالتفات ، ويفخر وفخره أحياناً كثيرة بشعره وبلاغته . ومن قوله :

شِعْرِي شِعْرٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسُ أَنْ ذُو الْعَقْلِ وَالْحَنْجَى عَبْدُهُ

ومن قوله أيضاً مخاطباً القاسم بن عبيد الله :

إِنْ أَكُنْ غَيْرَ مُحْسِنٍ كُلَّ مَا تَطُ	لَبُّ إِنِّي لَمُحْسِنٌ أَجْزَاءُ
فَمَتَى مَا أَرَدْتَ طَالِبَ فَحْصِ	كُنْتُ مِمَّنْ يَشَارِكُ الْحُكَمَاءُ
وَمَتَى مَا أَرَدْتَ قَارِضَ شِعْرِ	كُنْتُ مِمَّنْ يُسَاجِلُ الشُّعْرَاءُ
وَمَتَى مَا خَطَبْتَ مِنِّي خَطِيباً	جَلَّ خَطْبِي فَفَاقَ بِي الْخُطَبَاءُ
وَمَتَى حَاوَلَ الرِّسَائِلَ رَسُلِي	بَلَّغَنِي بِلَاغَتِي الْبُلَّاءُ

٣ - فخر شعراء الإمارات :

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً في امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسمائها وعظمة سلطاتها ، وقد بلغت أوجها في عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهياً لكل ذي طموح وطمع ، وإذا الدولة تصبح دويلات ، أشهرها دولة بني العباس في بغداد : ودولة البويهيين في فارس ، ودولة الحمدانيين في الشام . ودولة الفاطميين في مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء في هذه الحقبة أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وأبو العلاء المعري ، والطغراني .

أبو الطيب المتنبي :

ولد بالكوفة وفخره كثير في ديوانه . وهو مبثوث في جميع قصائده تقريباً ، وإن لم يستقل بواحدة منها . فأبو الطيب يفخر في جميع أحواله ، سواء رثى أم مدح أم هجا أم تغزل أم شكا . ولا عجب ، فهو لا يرى له مثيلاً في الوجود ، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف في الأرض سواها . أحس بعظمة شخصيته ، وقدر صفاته ، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية . حق قدرها بل فوق قدرها ، فامتلاً صدره وقاض حسداً وكرهاً . زد على ذلك اشتهار أصله العربي بالفصاحة والبيان ، وقبيلته اليمنية بالفروسية والشجاعة . وكان له أيضاً من نشأته البدوية ما مكن فيه التزعة المفاخرة . حتى أصبحت فيه طبعاً ؛ ومن معاكسات الزمان ، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد إلى الفخر ، تفريجاً وتعزية للنفس .

قلّ فخر المتنبي بقومه ، وإذا فخر بهم أوجز وأجمل ، لقلّة ما عرف عن آباءه الأقربين من المآثر والمفاخر ، ولأنه كان يعد نفسه مفخرة قومه :

لا بقَوْمِي شَرُفْتُ ، بل شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ ، لا بجُودِي !

ولذلك حصر فخره في نفسه ، مطرياً عزمه وصبره ، وتصلبه ، وخبرته :

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خِيَرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الْإِسْكَانَ السَّادِمِينَ عَزَمِي

وهو يجب أن يتمثل بعنزة ، فيصف نفسه في المعمة ، يوقع بالعدو المذعور بالسيف والرمح . وكَم تسمعه يتغنى بشاعريته ، ذاكراً مقدرة في الشعر وانقياد القوافي له :

أَنَامُ مِلءَ جَفْوٍ نِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ النَّاسُ جَرَّأَهَا وَيَخْتَصِمُ

وسيرة شعره :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قِصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بَيُوتُهُ إِذَا كُتِبَتْ ، يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الْحَبِيرُ

والمتنبى يعد نفسه من مرتبة الأنبياء والملوك ، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق الجميع ، ويجمع فيها كل الصفات :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مَنَ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِنَانِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

وفخر المتنبى صريح ، جرىء في كبريائه الجموح ، بل مغال فيها إلى حد مفرط ، وكثيراً ما يبطن كبريائه بازدراء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

إلا أن فيه من الأنفة والترفع عن الدنيا ، وجمال الصفات الرجولية
واندفاع الروح الشعرية النابضة ، ما يغطي شيئاً من تلك المعاييب الضخمة ،
ومن أروع المواقف التي توضح لنا نفسية المتنبي في فخرها واعتدادها ذلك
الموقف الجبار الذي وقفه في حضرة سيف الدولة وحوله الشعراء والعلماء وقد آلموه ،
وقد أوغروا عليه صدر أمير حلب ، فقال قصيدة منها :

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهزم

أبو فراس :

أما أبو فراس الحمداني فقد افتخر كل حياته ، حتى في أسره ، وأقبح
الآبيات الفخرية في أغلب منظومه ، أياً كان نوعه .
كان لأبي فراس من عز قبيلته تغلب ، ومكانة آباءه الذين اشتهروا بالشجاعة
والجلد وعلو الهمة ، داع يستفزه إلى الفخر ، ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور
في قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف وأرباب الأدب .
ولما شب رأى في نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب في قراع الأسنة
واقترحام المخاطر ، وشمال أثارت في نفسه الإعجاب . ولما خاض ميدان القتال ،
وأحرز من الانتصار على مناهضى ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طرباً ،
هب يترنم بوقائعه ، وتمرسه بالشدة والتصلب في مجابهة الأخطار .
ثم لم يلبث أن أسر ، فتبدلت حاله ، ولكنه أنى المذلة ، فشرع يتعزى
ويتنشط بذكر مآثره وخصاله .

ولعل تيممه في حداثة سنه ، الذي حرمه عطف والده وحفاوة المتزلفين ،
دعاه إلى الفخر ، استعاضة عن مديح الشعراء .
ولأبي فراس في قبيلته وذويه مفاخر كثيرة ، منها قصيدة طويلة مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامريَّةِ زائرُ فيسمَعَدَ مَهْجُورُ ، ويسعد هاجر

وهو يرى في قبيلته الخير كله . فإن ماضيها وما لها من الأيام الماثورة ، قبل الإسلام وبعده ، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم أولو المناقب الرفيعة ، والمآثر الجليلة ، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَشِنْ خُلِقَ الْأَنَامُ لَحَمٍ وَكَأْسٍ وَمَزْمَارٍ وَطَنْبُورٍ وَعُودٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا لِمَجْدٍ أَوْ لِيَأْسٍ أَوْ لِحُجُودٍ

وفي آل حمدان السياسة المحنكة . وقد بذلوها في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج ، وتذليلاً للثائرين ، وقهراً للروم ، وإخضاعاً للقبائل المتشعبة . قال في قصيدة يفخر بها على نزار :

تُفَضِّلُنَا الْأَنَامُ وَلَا تُعَاشِي وَنُوصِّفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا نَحَابِي
وَقَدْ عَلِمْتُ رَبِيعَةً بَلَّ نِزَارُ بَأْنَا الرَّأْسُ وَالنَّاسُ الدُّنَابِي

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأبعدين : بل ينتقل إلى تعداد مناقب جدّه . ووالده ، وابن عمه سيف الدولة ، فتبدو له مفعرة باقية أبداً الدهر . يصونها الأحفاد بعد الأجداد ، ويكملون تشييد ما بنى قبلهم من صروح العز الرفيعة :

نَشِيدُ كَمَا شَادُوا ، وَنَجْنِي كَمَا بَنَوْا لَنَا شَرَفٌ مَاضٍ وَآخِرٌ غَايِرُ

وهكذا يصل الشاعر إلى نفسه . فيفتخر باشتداد عزيمته ، وإقدامه ، وتصلب قوته في وقائع الحروب ، وأنفته : وانبساط كفه ، وترفعه عن الدنيا .

ومهما يكن من اشتداد النواذب وإيقاعها به ، فلا تزال نفسه تأبى مواطن
الذل وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة . ولكنها لا ترى ضميراً في التشكى والعتاب ؛
وتذكر الواجب ؛ وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . ذلك لأنه ظل في حياته
شرفاً عزيزاً :

وكيفَ يَنْتَصِفُ الأَعْدَاءُ مِنْ رَجُلٍ الْعِزُّ أَوَّلُهُ وَالْمَجْدُ آخِرُهُ

يتوكل أبو فراس في فخره على مفاخر تدامى العرب من مثل عمرو بن كلثوم
والمهلهل . فيكثر من ذكر أسماء الرجال وموقع القتال ، ويجعل فخره قومياً أكثر
منه ذاتياً . إلا أنه لا يجيد وصف القتال ، ولا يطيل فيه كما كان يفعل المتنبي
فكانت قصائده في هذا الباب تعداد مفاخر تنخر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ
فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القومية الشيء الكثير . ولا يخلو فخر
أبي فراس من الغلو ولكنه غير مفرط ؛ ولا يخلو من اللطف الذي يسمو به عن
الفخر الصبيانى . وأبو فراس صادق العاطفة . مندفع الحماسة وإن كان
ضعيف الوصف ؛ غير دقيق التصوير .

زد على ذلك أن لفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال
الرجل وما أثر قومه وأجداده .

الشريف الرضى :

أما الشريف الرضى فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب ومن شعره في
الفخر قوله :

لِغَيْرِ أَعْلَى مِنِّى الْقَبْلِ وَالْتَجَنَّبُ وَلَوْ لَا أَلْعَلِّى مَا كُنْتُ فى الْحُبِّ أَرْغَبُ
إِذَا اللَّهُ لَمْ يَعْذِرْكَ فِيمَا تَرَوُّهُ فَمَا النَّاسُ إِلَّا عَاذِلٌ وَمُونَبُ
مَلَكَتْ بِحِلْمِى فُرْصَةً مَا اسْتَرْقَهَا مِنْ أَلْذَهْرِ مَفْتُولُ الدَّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنَى مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا
فَحَسْبِيْ أَنَّى فِي الْأَعَادَى مُبْغَضُ
وَلِلْجِلْمِ أَوْقَاتٌ ، وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا
يَصُولُ عَلَى الْجَاهِلُونَ ، وَأَعْتَلَى
يَرُونَ أَحْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ
وَأَعْرِضُ عَنْ كَأْسِ الْنَدِيمِ كَأَنَّهَا
وَقُورٌ فَلَا أَلْهَانُ تَأْسِرُ عَزَمَتِي
وَلَا أَعْرِفُ الْفَحْشَاءَ إِلَّا بِوَصْفِهَا
تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ الْقَوَارِصِ شَيْمَتِي
لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ الْجَهْلُ بِالْحَبِي
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي
غَرَائِبُ آدَابِ حَبَائِي بِحِفْظِهَا

فَلِي مِنْ وَرَاءِ الْمَجْدِ قَلْبٌ مُذَرَّبُ
وَأَنَّى إِلَى غُرِّ الْمَعَالَى مُحِبُّ
وَلَكِنَّ أَيْامِي إِلَى الْجِلْمِ أَقْرَبُ
وَيُعْجِمُ فِي الْقَائِلُونَ ، وَأُغْرِبُ
لَوَاعِجَ ضِغْنٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ
وَمِضُّ غَمَامٍ غَائِرِ الْمُنِّ خُلْبُ
وَلَا تَمَكُّرُ الصَّهْبَاءِ بِحِينِ أَشْرَبُ
وَلَا أَنْطِقُ الْقُورَاءَ وَالْقَلْبُ مُغْضَبُ
كَأَنَّ مُعِيدَ الذَّمِّ بِالْمَدْحِ مُطْنِبُ
إِذَا نَالَ مِنِّي الْعَاضَةُ الْمُتَوَثَّبُ
فُضَالَاتُ مَا يُعْطَى الزَّمَانُ وَيَسْلُبُ
زَمَانِي وَصَرَفُ الدَّهْرِ نَعْمَ الْمُؤَدَّبُ

ويتجلى لنا الشريف الرضى رجل عزة وإباء وعزم ، ينظر إلى أصله وإذا
هو في دوحة العلياء من أكرم فرع ، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم ،
وإذا نفسه أهل لذلك العظيم ؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعى إليه وخلق
لأجله ، وإذا في نفسه حرب جبارة ، وثورة سخط ضخمة في وجه الزمان الذى
يعادى الأحرار ، وفي وجه الناس الذين يقومون في وجه كل عزيز طموح .
ويتجلى لنا الشريف حزيناً في قرارة نفسه ، متألماً في أعماق قلبه ، وذلك أنه
لا يستطيع القبول بالظلم ، والاستكانة للذل ، فهو ينتفض انتفاضة النسر الجريح ،
وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتصع فيها الشرر ، وقلب جرىء لا يخاف سيلاً

ولا مسوداً ؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره ، فهو نفس كبيرة آبية ، وقلب رقيق شديد الانفعال ، وثاب إلى المعالي ، نباض في وجه الظلم ، جرىء على رفته ، بطاش على شدة انفعاله ، لا يخلو من زهو وكبرياء ، ولكن تلك الكبرياء هي أقرب إلى الأنفة منها إلى الكبرياء .

وقد أراد الشريف أن يقلد المتنبي في فخره ، فجاراه في نفحته الملحمية ، ونبضاته التوثبية ، وترفعه عن كل حقير دنى ، وإنه وإن لم يبلغه في قوة انطلاق شعره ، وفي سكه للأبيات سكاً شديد الوقع ، فقد وجد من شرف أصله ، وسمو نفسه ، ومواهبه العالية ، وسجاياه النادرة ، ومقامه الاجتماعي ، ما لم يتوفر لأبي الطيب . ولهذا فقد اتسع نطاق فخره ، وازدحمت معانيه ، وتنوعت أفكاره ، ولم يلجأ إلى الإحالة ليخفي ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعياً غير لائق به . ومن ثم فقد كان فخر الشريف أقرب إلى النفس ، وأدخل في العقل ، وآنس للأذن .

وقد فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ، أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى الدوحة الكريمة فيتعالى في سماءها ، ويغرق بين أوراقها في عشق ووله ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتدوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً ، مهدداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديق بالحجد والإباء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفيض الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

وإنك لتشعر ، في كلام الشاعر ، برفعة ترفعك إلى أجوائها ، وبجو ملحمي يحاول الشاعر أن يضحك عناصر القوة فيه بالتشخيص والتمثيل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن في نفس الرجل انصهاراً مؤلماً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب ، كما يرسل زيجرات السخط والتهديد ، وإنك تشعر على كل حال بانسجام رائع ، وعذوبة أخاذة ، وعمق في التفكير ، وبعد في الملح . وتعجبك من الشريف صراحته وجراته ، كما يعجبك إيجازه وابتعاده

عن التفصيل والإسهاب . ويروقت اختيار الشريف لألفاظه ، وحسن تركيبه لأبياته ، فهي بدوية حضرية ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الإيقاع .

المعري :

وأبو العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء . له عدة قصائد في الفخر أشهرها قصيدتان : الأولى هزمية ومطلعها :

ورائي أَمَامُ والْأَمَامُ وراءُ إذا أنا لم تكبِرْني الكِبَرُ
والثانية لامية ومطلعها :

أَلا في سبيلِ المجدِ ما أَنَا فاعِلُ عَفَافُ وإِقْدَامُ وَحَزْمُ ونائِلُ
والشاعر يفخر بنفسه وبقومه . أما نفسه فيفخر بصفاتها الأدبية من شجاعة وكرم وذكاء . وأما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر ، واستيلائهم على الأرض ، وغناهم عن الناس ، وافتقار الناس إلى معرفتهم .

وأبو العلاء يكد ويجهد في البرهان عن مفاخره ، وكأنه يخشى من علته وقبح مظهره أن يحولا دون تقدير الناس له ، فينظم الشعر النابض بترعات شخصيته القوية ولا يتخرج من المبالغة في التمدح . ويتأني له في موقفه هذا أبيات حكمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة ، وفضل الغنى الداخلي على الثروة المادية ، فيقول مثلاً :

وإن كان في لُبْسِ الفتى شرفٌ لهُ فما السيفُ إِلَّا غِمْدُهُ والحمائلُ

الطغرائي :

أما الطغرائي فله في الفخر قصيدة شهيرة عرفت بلامية العجم ومطلعها :
أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الْخَطَلِ وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى الْعَطَلِ
مَجْدِي أَخِيرًا وَمَجْدِي أَوَّلًا شَرَعُ وَالشَّمْسُ رَأْدُ الضَّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطُّفْلِ

فِيمَ الإِقَامَةُ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنَى فِيهَا وَلَا نَاقِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي

وهذه القصيدة من أروع ما كتب في الفخر وعزة النفس . وقد أودعها الشاعر ثورة نفسه أمام الحدثان ، وراح فيها يفصل أمجاده ، ويصور طويلا تلك النفس ، ويتوثب توثباً حافلاً بالقيم المعنوية ، حافلاً بالرصانة المتجبرة ، التي لا تذللها الصعاب ولا تلوى بها الأيام ، في انطلاق شعري مملوء بالإبداع .

الفخر المذاتي بعد العهد العباسي

وصل الفخر الذاتي سيره عند العرب ، وقد أخذ يتقلص ظلّه شيئاً فشيئاً ويتضاءل في العصور المتأخرة . لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعي الشخصي . ولئن سمعت له أصداً من آن إلى آخر فما ذلك إلا ترديد للنغمات السابقة والأساليب السابقة في غير انطلاق ولا عمق .